سهيل إدريس: مقالاتٌ وشهاداتٌ جديدة

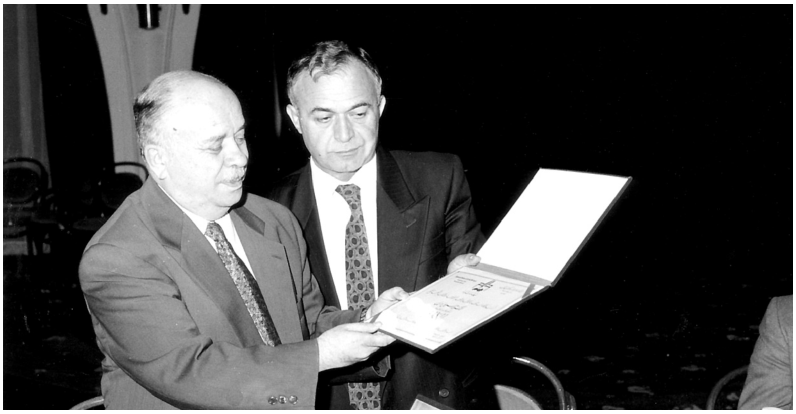

ما زالت الأبحاث والمقالات تصل إلى الآداب عن مؤسِّسها الكبير د. سهيل إدريس. هنا مقاربتان جديدتان من كاتبيْن عراقييْن.

المثقّف في صورة الرائد

ماجد صالح السامرائي❖

... وإذ أكتب اليومَ عن الأخ والصديق الدكتور سهيل إدريس، فإنما أكتب عن رجل فكر وثقافة وإبداع، أمضى حياتَه في المعترك الثقافي العربي، على عنفِ ما ساده من اتّجاهاتٍ وملابساتٍ في مدى نصف قرن من ظهور حركات التغيير والمصادرة والعنف السلطوي. فكَتب الكثيرَ، وقَدّم الكثيرَ، وخاض أكثرَ من معترك باسم الثقافة العربية والفكر القومي، وكَشف من الأسماء العربية الكثيرَ، جاعلاً من هذا كلّه صورةً لحياةٍ فكريةٍ وإبداعيةٍ عربيةٍ جديدة. وبقدْرِ ما كان اكتشافُه هذا يتواصل، ويتواصل معه العطاءُ، كانت الحياة الثقافية التي رعاها في الآداب تتجذّر عطاءً، كما يتجذّر المشروعُ الثقافي القومي: فإذا هو مشروعٌ يتواصل نموّاً وتطورًا، ويزداد تعلّقًا بالحلم العربي، حتى حين مرّ هذا الحلمُ بانكساراتٍ قاسية.

(١)

أحسب أنه لو طُلب الى المفكّر الطاهر لبيب أن يختار من الأسماء العربية اسمًا يتّخذ منه المَثَل لما وَضَعَ من تمثيلاتٍ للمثقّف الملحمي الذي انتهى الى أن يصبح مثقّفًا تراجيدياً، لما تردّدَ لحظةً في أن يضع اسمَ الدكتور سهيل إدريس في المقدّمة. فهذا المثقف الذي بدأ حياتَه الفكرية منذ أربعينات القرن الماضي وُلد وتكوّن في مرحلةٍ من أهمّ مراحل التاريخ الحديث، اقترن الفعلُ الثقافي فيها بنزعةٍ ملحميةٍ واضحة. فهو من بين أولئك المثقفين الذين انصبّ اهتمامُهم على الإنسان والواقع، جاعلاً من الثقافة منزعًا ذاتياً ـ وجودياً ينفتح على مشروع أكبر يتمثّل في بناء الإنسان والواقع. وقد أوجد لمشروعه هذا وسائلَ تحقيقه يومَ أنشأ مجلة الآداب ودار الآداب، مقدِّمًا من خلالهما صياغةً للحاضر والمستقبل على أساسِ أنّ التاريخ يحتّم إنجازَها. ولعلّ ما ساعد كثيرًا في إشاعة روح هذا المشروع هو مجيئُه في مرحلةٍ يَعُدّها التاريخُ الأدبي اليوم «مرحلةَ كبار المثقفين المتميّزين أساسًا ببناء أحلامٍ كبيرة.»

وإذا كان هذا المثقف الذي بدأ ملحميّاً على هذا النحو سينتهي الى التراجيدية، فذلك لأنّ الحقبة التالية فَرضتْ واقعًا مناهضًا لتلك المشروعات الكبيرة. لكنّ هذا المثقف، في تراجيديته ذاتها، ظلّ «مثقفَ المستحيل،» وفي حالةِ مواجهةٍ لقَدَره، لا يبحث عن نصرٍ قريب؛ بل إنّ إنجازه يتمثّل في التعبير عن عدم الرضا، وفي الكشف عن شقاء العالم.

كما يمثّل سهيل إدريس، في بعدٍ آخر من أبعاد عمله الثقافي، «المثقفَ التاريخي» الذي هو، بحسب عبد الإله بلقزيز، ذلك «المثقفَ الذي يرتفع بالممارسة الى مستوى الحاجات التاريخية الكبرى،» فلا يكفّ عن ممارسة النقد البنّاء «ضدّ كلّ مُطْلَقات الفكر والممارسة لتحرير العقل من العقائدية الجامدة،» معرِّضًا «بنيانَ الدولة والمجتمع للنقد والتقويم،» منتصرًا «للحرية ضدّ الاستبداد، والديمقراطية ضدّ الاحتكار والتوتاليتارية، وللوحدة ضدّ التجزئة، وللعدالة ضدّ الإجحاف الاجتماعي، وللاستقلال ضدّ الاحتلال والهيمنة، وللتنمية ضدّ التبعية، ولروح

❖ ـ كاتب عراقي، ومراسل الآداب في بغداد.

التضامن الجماعي ـ الوطني والقومي ـ ضدّ مختلف أشكال الفئوية...» فكان أن أصبح، منذ خمسينات القرن الماضي، حالةً ثقافيةً وفكريةً متميّزة.

تأسّس وعيُ سهيل إدريس بالأمة على أساس الفكر القومي العربي الذي كان، هو نفسُه، أحدَ دعاته في عصرنا هذا. وتعيّنَ حضورُه الثقافي بفضل دوره مثقفًا قوميّاً، وذلك عبر ما طُرح أو تمّ تبنّيه من دعوة إلى ثقافة عربية جديدة، وإلى فكرٍ قومي نَظَرَ إلى الأمة من خلال وجودها التاريخي ووضعها في سياق عملية التطور التي جَرَتْ في المرحلة الحديثة والمعاصرة. ويوم أصدر الآداب عام ١٩٥٣، جعل منها المجالَ الحيويّ للفعّالية الثقافية المساعدة في صياغة المشروع النهضوي العربي الجديد على أساس وحدة الأمة، وبناء مجتمع الحرية فيها، وتحقيق الاشتراكية لحياة أبنائها. ولو عدنا الى ما كتبه فيها، أو إلى ما نشره لمفكّرين قوميين وأدباء تداخَلَ موقفُهم الفكري مع عملهم الأدبي، لوجدنا أنّ التركيزَ الأكبرَ فيه قد انصبّ على ما يشكّل رؤيةً سياسيةً ـ فكريةً متكاملةً يَحْكمها التوجهُ الواضحُ نحو بلورة وعي الإنسان العربي بواقعه وبالعالم، بعيدًا عن كلّ «نخبوية» في الموقف أو النظرة. ومن هنا لم تكن المعاركُ الثقافية التي فتحتْها الآداب، على مدى تاريخها الطويل، بالمعارك العابرة في تاريخ الثقافة العربية. فهي، فضلاً عن كونها معاركَ ذاتَ منطلق قومي ـ تاريخي، كانت مفتوحةً على مفهومات التقدم والتغيير.

(٢)

وإذ نتكلّم على سهيل إدريس فإنما نتكلّم على نموذجٍ من المثقفين العرب فريدِ الطراز في طبيعته والتزامه قضايا الإنسان والأمة. فقد وضع هذا الأديبُ والمفكّرُ معرفتَه وسَخّر جهدَه في خدمة هذه القضايا. وقد اقترن اسمُه بمفهوم «المثقف الطليعي»: فهو من نخبة فكرية تجاوزت المفهومَ الضيّقَ للنخبوية ـ بما تعني من انعزال عن المحيط العامّ ـ لينخرطَ بكليّة جهده في مشروع ثقافي أقامه على دعامتين رئيستين: التجديد، وحرية الفكر. وقد انطلق في مشروعه هذا من إدراكٍ أساسُه أنّ على الثقافة والفكر أن يلعبا الدورَ الرياديَّ في إعادة بناء ذات الأمة على أسس الحضارة والتقدم، ومن وعيٍ أساسُه أنّ للمثقف الطليعي دورَ المناضل الطليعي: فهو مَن يَصنع زمانَه الجديد، الذي هو زمانُ الأمة التاريخي، زمانُ التحول واستئنافِ الدور الثقافي والحضاري.

وإذا كان للمثقف العضوي، بالمعنى الغرامشي، من مثالٍ حيّ في الثقافة العربية الجديدة، فإنّ هذا المثال هو في ما كان سهيل إدريس قد قدّمه من نفسه: مثقفًا عربيّاً ذا مشروع. ولم يكن هذا الدور سلميّاً هادئًا، وإنما جعله، منذ البداية، دورَ صراعٍ على غير جبهة، يصبّ، محصّلةً، في صالح هذا المشروع القومي العربي الجديد:

ـ فهو صراعٌ بين دعاة القومية العروبية ومعارضيها، على جبهة الثقافة والفكر، كما على أرض الواقع في بعديْه الوطني والقومي، بما في ذلك الصراعُ بين قوى التحرر العربي والاستعمار الغربي .

ـ وهو صراعٌ بين التجديد والتقليد، بتياراتهما المتعددة، من أجل ثقافة عربية جديدة.

ـ وهو صراعُ الحرية مع الاستبداد والدكتاتورية.

ـ وهو صراعُ الفكر العَلماني ـ التقدمي، في وجهه العربي وروحه النابعة ممّا للأمة من تاريخ وحضارة، مع كلّ ما يناهض هذا الفكر أو يحاول تعويقَ مسيرته نحو التقدم. وقد عبّر إدريس عن وجوه هذا الصراع في كتاباته الفكرية كما في أعماله الإبداعية، والروائية منها على وجه التخصيص.

وإذا كان سهيل إدريس سيتبنّى الفكر الوجودي وأدبه فيقدّمهما أفضلَ تقديم من خلال روّاد هذا الفكر وفلاسفته (سارتر، وكامو، وسيمون دو بوفوار)، فإنّ هذا التقديم جاء جزءًا من معركته الفكرية، مقدّمًا ومتبنّيًا مفهومًا آخرَ للالتزام في الأدب والفنّ، مواجهًا به حالاتِ الانغلاق الدوغماتي والانسداد الفكري التي سادت في حقبة الخمسينيّات على وجه التحديد. كان هذا كلّه في مرحلةٍ شهدتْ ما كنتُ أسميتُه في أوائل التسعينات بـ «نقص الحرية في الواقع العربي.» وقد انجذب إدريس الى هذا التيار الفكري ـ الفلسفي من خلال مسألتين أثارهما هذا الفكر: الحرية والمسؤولية، كما أكّد هو نفسُه ذلك؛ فضلاً عن أنه وجد في الوجودية مذهبًا غايةً في الأهمية في التاريخ الفكري الحديث. وكان هذا التيار قد حظي باستجابة كبيرة في الحياة الثقافية العربية في ذلك الحين، حتى عُدُت بعضُ الكتابات التي نشرتها الآداب آنذاك استجابةً طبيعيةً لهذا التيار الفكري؛ كما عُدَّ بعضُ كتّاب الآداب (وفي طليعتهم مطاع صفدي) في هذا التيار، ولم يَفْصلوا بين جوهر النظرية الفكرية الوجودية وبعض منظورات الفكر القومي، وخصوصًا ما يتصل بفكرة الالتزام في الأدب والفن وبمفهوم الحرية الفردية.

(٣)

إذًا، في البدء، كانت الآداب، فكانت أكبرّ من مجلة. فقد كانت منذ البداية مشروعًا قوميّاً في صعيد الفكر والثقافة، كما كانت مشروعًا تجديديّاً في مستويات الإبداع الأدبي. ولا يمكن الكلامُ على سهيل إدريس، المثقف والمفكر والمبدع، بمعزل عن الآداب بما كان لها من دور رياديّ في مستويات الفكر والإبداع كافة.

من البداية قال سهيل إدريس إنّ الثقافة موقفٌ أو لا تكون، وإنّ المثقف إنما هو في عطائه الفكري وفي دوره القومي. لذلك لم يقف يومًا موقفَ الصمت والتفرج على ما حصل في تلك السنوات الخمسين من عمر الآداب من انتهاكات لحرية الإنسان أو حرية الفكر؛ ذلك أنّ الثقافة في مفهومه عمليةُ مواجهةٍ لأعداء الفكر والإنسان. والمثقف ليس إنسانًا خانعًا يمتثل لما يُملى عليه، بل متمرّد ورافض وثوري.

وإذ نَصِفُ دورَه الثقافي هذا على مدى أكثر من نصف قرن بالدور الريادي، فإنما نقول بهذا انطلاقًا من طبيعة التوجه الذي سيصوغ من خلاله نظريةَ الالتزام

القومي صياغةً وَضعتِ الحدودَ الدقيقةَ بين النظرة القومية العربية وبين النظرات العدمية والمواقف المعادية للعروبة (الانعزالية، والقُطْرية، والاستعمار، والصهيونية). وبهذا المعنى، ليست هناك في رأيه ثقافةٌ مجرّدة... إلاّ بمعنى خيانة الإنسان وجودًا وقضية.

تجلّى الفكر القومي في الآداب فكرًا عميقَ الجذور واضحَ التوجهات. فقد استطاع صاحبُ الآداب أن يَعْقد الصلةَ مع أهمّ المفكرين الذين ظهروا في تلك المرحلة العربية التي انطبعتْ بطابع التطلّع إلى حال جديدة، وأن يجعل من مجلته حاضنةً لهذا الفكر في ما قَدَّمَ من أطروحاتٍ أساسيةٍ أنضجتْ فكرتين أساسيتين في الواقع الفكري العربي: الدعوة الى الوحدة العربية بما هي شرطٌ لوجود أمةٍ ذاتِ رسالةٍ إنسانيةِ التطلع والعمل؛ والحرية، التي تبدأ من التحرر من الاستعمار والأنظمة الفاسدة التي أوجدها على الأرض العربية والتي أصبحتْ داعمةً لوجوده. فكان مفهوم الحرية هنا بشمول معانيها: السياسية، والاجتماعية، والثقافية، بما في ذلك حريةُ الفكر والتعبير.

ومع أنّ رومانسية الحلم العربي أخذتْ معظمَ كتّاب الآداب في تيّارها، بمن فيهم صاحبُها نفسه، إلاّ أننا نجده في غير موقفٍ يقرّب هذا الحلمَ إلى الواقع، ناظرًا نظرةً فيها شيءٌ من العقلانية الثورية إلى ما يجري. ولذلك، فبقَدْر ما كانت الصدماتُ عنيفةَ الوقع وقاسيةً (انحرافُ ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق عن مسارها العروبي والولوج إلى قُطْرية ضيقة، ثم المجازرُ التي شملتْ أصحابَ التيار القومي العربي، وسقوطُ تجربة الوحدة بين مصر وسورية عام ١٩٦١، ثم نكسةُ حزيران ١٩٦٧)، فإنها لم تذهبْ باليقين القومي لسهيل إدريس، بل سنجده يخرج والآدابَ من رماد الفجائع هذه متمسّكًا بالحلم العربي نفسه، راسمًا خريطةً جديدة لمسارات هذا الحلم. فأعاد، في

يوم أصدر الآداب جَعَل منها المجالَ الحيوي للفعّالية الثقافية المساعدة في صياغة المشروع الجديد على أساس وحدة الأمة، وبناء مجتمع الحرية فيها، وتحقيق الاشتراكية.

ما كَتب ونَشر، الكثيرَ من مقوّمات هذا الحلم إلى نفوس الذين كانوا يحلمون بزمان عربي جديد. وجاء عملُه المهمّ في هذا الجانب في عقد الصلة بين عطاء المثقف والمجتمع، حاملاً مشروعَه الجديد ـ القديم على جناح صدقه وأصالته، متحرّكًا به نحو المثقفين العرب حيث كانوا، جاعلاً من ثباته في الرأي ومن تأكيده وحدةَ الموقف إزاء قضايا المصير رصيدَه الذاتيَّ الأكبر، فأخذوا ما يدعو إليه مأخذَ صدق. ولم يخيّبهم، ولا خَذَلَهم، يوم تطلَّبَ الأمرُ موقفًا معلنًا. والشواهد كثيرة.

وفي الوقت الذي شهدنا فيه تشتّتَ المثقفين العرب، وتوجُّهَ بعضهم توجّهاتٍ ألغَوْا من خلالها تواريخَهم الفكرية، ظلّ سهيل إدريس «شاهدَ يقينٍ ثوري» على المشهد الثقافي لتلك الحياة والحالات: متّكئًا على نفسه، وعلى نفسه وحدها، لا على كتفٍ (أو محمل) سواه. كما لم تَغِبْ من رأسه رؤيا الحلم العربي الذي كان من أوائل المبشّرين به. ويوم وَجد سهيل البعضَ يربطون مراكبَهم إلى شواطئ كانوا إلى وقتٍ قريبٍ يدينون الاقترابَ منها، نَظَرَ إليهم نظرةَ إشفاقٍ لا تخلو من الرثاء والحزن، فكَتب ونَشر في رثائهم الكثير. أما يومَ أُطلقتْ رياحُ «منظّمات المجتمع المدني» أشرعتَها وانتظم في مياهها عديدُ «الأشرعة،» فقد وجدناه يطوي شراعَه مفضّلاً البقاءَ في «نطاق بيته» لا يتطلّع الى ما هو خارج حلمه فيه.

لذلك ظلّ صاحبُ الآداب وحيدًا، وإنْ وَجد، كما وَجدْنا، تفرّدَه في وحدته، بعيدًا عن هذه «المزابل الثقافية» التي جَمعتْ قماماتِها من أوسخ أرض على هذه الأرض. كما نأى بنفسه عن تلك «المغاسل الثقافية» التي أُدخل إليها كثيرون ليَخْرجوا بأناقةٍ في المظهر... ولكنْ بعقولٍ مدجَّنة. لقد أراد سهيل إدريس أن يظلّ كما وُلد يومَ وُلد مثقفًا يحمل عبءَ المسؤولية الثقافية والقومية، مُطْلقًا صرخةَ الحياة في وجه أعداء الحياة. وظلّ على مدى ستّين عامًا وأكثر يقول للجميع ما قاله بطلُ غسان كنفاني في **عائد إلى حيفا**: «إنّ الإنسان في نهاية المطاف موقف!»

ويومَ أخذتْ أحلامُ جيل الثورة الثقافية تتهاوى الواحد تلو الآخر، فإنّ حلم سهيل إدريس بوجودٍ عربيّ أفضلَ لم يفارقْه ولا غاب عن أفق تطلّعاته. كان يَحْزن لما يرى من انهيارات في الواقع، ولكنه لم يذهبْ إلى منطقة اليأس، بل ظلّ مشروعُه القومي مفتوحًا على المستقبل. لذلك، ومع كلّ ما تعرّضتْ له وسيلة هذا المشروع الثقافي القومي (الآداب) من مصاعب ومضايقات في فسحة الانتشار بقصد إسكات صوتها، فإنها ظلت واقفةً ولم تَنْحنِ، وظلّ سهيل في الميدان ـ ويشرّفني أنني كنتُ معه في معترك الآداب هذا نحو خمسةٍ وثلاثين عامًا.

ومع أنه وَجَدَ نفسَه غيرَ مرة، مثله مثل أيّ أديب عربي، لا يستطيع التعبيرَ عن رأيه الصريح (وهو ما رأى فيه مأساةً حقيقيةً للمثقف)، فإنه ظلّ من أشدّ المدافعين عن الحرية، وحريةِ القول والتعبير على وجه الخصوص. وكان يدرك، كما قال في مطلع الثمانينيات، أنّ «التجرّؤ على إظهار الرأي يكلّف الإنسانَ الأديبَ حياتَه.» فلنتصوّر المأزقَ الذي وَجَدَ نفسَه فيه يومًا، وهو الذي أكّد غيرَ مرة أنّ اختياره مسارَه الثقافيَّ والفكريَّ هذا كان اختيارَ أن يكون «مع حريته ومسؤوليته تجاه شعبه.»

بغداد

سهيل إدريس: عظيمٌ رحل

محمود سعيد*

(١)

في بداية تموز ٢٠٠٨ كلّفتني جامعةُ دي پول بتعليم أربعين طالبَ ثانوية الخطَّ العربي، نصفُهم لا يَعْرفون أيَّ شيء عن العربية، أما النصف الثاني فيكاد لا يستطيع أن يكتب حروفَ الهجاء. طرتُ فرحًا؛ فمنتهى السعادة هي أن تَعمل ما تحبّ. لكنّ التعليمات التالية خيّبتْ ظنّي: فقد كان الوقتُ المحدّد لتدريس الخطّ خمسَ ساعات ونصفَ الساعة فقط، مقسّمةً على عشرة أيام. فكيف أستطيع تعليمَ مراهقين، لا يعرفون من العربية شيئًا، الخطَّ العربيَّ بمثل هذا الوقت المحدود؟ لقد كان جيلُنا في العراق يتمرّن على ممارسة الخطّ ستَّ سنوات كاملة، ومع ذلك فلا تجد مَن يجيد الخطَّ سوى واحدٍ في كلّ ألف.

فُرضت المعركةُ عليّ، ولا بدّ من النجاح. ظللتُ بضعةَ أيام أفكّر كيف سأبدأ. ثم حدثت المعجزةُ بعد انتهاء الأيام العشرة: فقد استطاع نحو عشرة طلاب أن يكتبوا أسماءهم بخطّ الرقعة وبشكل ممتاز؛ كما استطاعت ثلاثُ طالبات أن يكتبن أسماءهنّ بشكل مميّز. شعرتُ بلحظة نشوة وفرح هائلةٍ لا يمكن أن تقارَنَ سوى بفوزي باليانصيب. واحتفلتُ مع صديق، وشربتُ نخبَ النصر، وظلّت الفرحةُ تسيطر عليَّ بضعة أيام، ولا أظنّها ستزول بسهولة.

إنْ كنتُ شعرتُ كذلك وأنا أكتشفُ بضعةَ أطفال موهوبين، فكيف شَعَرَ سهيل إدريس وهو يكتشف العشرات، لا بل المئات، من العباقرة المبدعين العرب؟ فكّرتُ طويلاً: هل فرح وانتشى لاكتشافه أو لتسليطه الضوءَ على كلٍّ من السيّاب؟ نازك الملائكة؟ البيّاتي؟ محمود درويش؟ سميح القاسم؟ الخ؟ أين أنا، بإنجازي المتواضع وفرحتي ونشوتي، مِنْ هذا العملاق؟! ترى، هل كان يَشْرب نخبَ اكتشافه كلَّ مرة كما فعلتُ؟!

هناك في رأيي مقياسٌ واحدٌ للعظمة والسموّ، هو الإنجاز. أنا أُنجز، إذًا فأنا حيٌّ موجود. وإلاّ، فأنا ميتٌ غير موجود. ووفقَ هذا المقياس، الذي يخالفني فيه الكثيرون، يتوجب عليّ أن أطرحَ ما يأتي:

بالنسبة إلينا، نحن العرب، يتسامى في قمّة الأدب العربي في القرن العشرين رموزٌ كثيرة، أعلاها: طه حسين ونجيب محفوظ. لا يَخْتلف في إنجاز محفوظ أحد؛ فقد كان في قمّة كتّاب الرواية طوال عقود. أما طه حسين فكتب في السيرة والرواية والدراسات الأدبية، لكنّ أهمّ ما أبدعه هو عودتُه إلى الأسلوب المرسل (السهل الممتنع). ومع ذلك فإنّ إنجاز الاثنين لا يمكن أن يقارَنَ بإنجازات سهيل إدريس مطلقًا. فلقد أنجز سهيل إدريس ما لم يستطعْ عربيٌّ إنجازَه قطّ طوال أربعة عقود كاملة؛ وربما اعتبر أحدٌ كلامي مبالغةً، لكني لا أصرِّح به عبثًا. فلننظرْ إلى الوقائع:

هناك مئاتُ الجامعات العربية تدرِّس الأدبَ العربي، فكم عبقريّاً خَرّجتْ في وزن السيّاب أو نازك أو البيّاتي... الخ؟[١] قد يدّعي أحد أنّ هؤلاء عباقرةٌ، وأنه لا فضلَ لسهيل إدريس في اكتشافهم، إذ لو لم يكتشفْهم هو لاكتشفهم غيرُه. نعم، في هذا القول جزءٌ من حقيقة، لا الحقيقة كلّها. هم عباقرة فعلاً، لكنْ من المستحيل لغيره أن يسلّط الضوءَ عليهم في غير قُطرٍ عربي واحد. إذ لم يكن غيرُه يَملك من الحزم والقوة والجرأة والتضحية والموهبة والتذوق الأدبي وحاسّةِ شمّ الجديد والمتميز ووووو ليُصْدر مجلةً ساميةً، رائعةً، تنتشر في كلّ الوطن العربي وتستقطب، وتستهوي، وتَجْذب، وتُلْهم العربيَّ في كلّ بقعة من بقاع الأرض، ولتكتشف المبدعين وتقدِّمَهم إلى قرّاء هذا الوطن الواسع وبأسهل طريق وأوضحه وأقربه إلى الشهرة. لذا فإني أستطيع أن أقول إنّ أكبر جامعة أكاديمية في عموم الوطن العربي كانت، وببساطة، مجلةُ الآداب لسهيل إدريس. ولهذا أيضًا كَتَبَ عن المرحوم وأشاد به ونعاه عددٌ هائلٌ لم يتوافرْ لأكثر العظماء الذين رَحَلوا قبلَه. وقد كان كلُّ ما كُتب عنه حقّاً، إلاّ أنّ أهمّه بضعُ كلمات قالها جمال الغيطاني، وهي تعبِّر أفضلَ تعبير عن حال أدباء العرب وعلاقتهم به: «ليس هناك مثقفٌ عربي غير مدينٍ لسهيل إدريس!»

أصِفُ الخالدَ سهيل إدريس بالجرأة والحزم والعزم وبصفاتٍ خارقةٍ أخرى لأنّ مَن يَنْظر إلى مساحة الأرض العربية لم يجدْ في القرن العشرين سوى بضع مجلاّت أدبية أينعتْ ثم انطفأتْ، كزهور الصحراء التي تزدهر ربيعًا ثم سرعان ما يَقْتلها الجفافُ صيفًا. أمامي قائمة لعناوين عدة: **لغة العرب** (لأنستاس الكرملي ـ العراق)، **أپولو** (لأبي شادي ـ مصر)، **الكاتب المصري** (لطه حسين ـ مصر)، **الرسالة** (لأحمد حسن الزيّات ـ مصر)، **القصة** (لنادي القصة ـ مصر)، **القاهرة** (مصر)، ثم **الأديب** (لألبير أديب ـ لبنان). عشراتُ المجلاّت الأخرى التي نبتتْ كالفطر في كلّ مكان راوحتْ مكانَها منذ وُلدتْ، وماتت. فإنْ كانت كلُّ تلك التجارب الميئسة البائسة مرّت أمامه، فكيف يجازف بإصدار مجلة جديدة في هذا المحيط الراكد؟ وهل أراد تحريكَ بحيرة العرب الراكدة ليغيّرها لحظاتٍ أمْ بشكل دائم؟ لن يشكَّ أحدٌ قطّ، بمن في ذلك مَنْ يناصبه العداء، في أنه استطاع تحريكَ مياه الأدب العربي بشكل خلاّق مستمرّ، منذ أن بذر الآداب في رحم الإبداع العربي، وحتى الآن.

---

* ـ روائي وكاتب عراقي، يقيم الآن في شيكاغو.

١ ـ عندما أَذْكر هؤلاء الثلاثة فلا أَذْكرهم تعصّبًا، بل لأني أعرف وقائعَهم أكثرَ من غيرهم.

نَمَتْ زهرةُ سهيل إدريس نموّاً أخّاذًا منقطعَ النظير، في بيئة صحراوية تَقْتل الزهور. وهذا وحدَه متعةٌ، ونشوةٌ، ونصرٌ، تستدعي الاحتفالَ وتبادلَ الأنخاب. ولا شكّ في أنّ تلك المتعة استمرّت وسهيل في قمة انتصاره، يرى محاولاتِ مَن حوله تذوي أمام عينيه: مجلة **شعر**، مجلة **حوار**، مجلة **مواقف**، مجلات أخرى تولد وتنهض لكنها سرعان ما تنطفئ إلى غير رجعة. وحتى بعد ظهور الموجة الأخرى الأشدّ بؤسًا وسذاجة، مجلاّت دويْلات الطوائف الإقليمية المتشنّجة (الوطنية جدّاً جدّاً) والمنتشرة في عموم الوطن العربي الكبير، أمثال **الأقلام** (العراق)، **القاهرة** (مصر)، **المنتدى** (الإمارات) إلخ... بقيت الآداب كارتلاً عملاقًا عربيّاً صحيّاً، وسيْلاً قويّاً جبّارًا لا تقف أمامه كائناتٌ مرضى مليئةٌ بالدمامل، وأجسادٌ يَنْخرها تعصّبٌ «وطنيٌّ» مختلَقٌ ميتٌ لا محالة!

على أنّ إبداعَ سهيل إدريس لم يقف عند كتابة الرواية أو إصدار مجلة، بل تجاوز ذلك إلى فتح نوافذَ مترعةٍ بالضوء. ففي الوقت الذي كنّا فيه، نحن العراقيين بشكلٍ خاصّ، خاضعين لأوهام يسارٍ ستالينيّ مضلّلٍ ملتبس، قدّم سهيل إدريس لنا، بوعي عميقٍ هادفٍ، وبطريقةٍ غير مباشرة، وجهةً أخرى تختلف عن دوغما اليسار الحمقاء. وطَرَحَ أمامنا، بما يُشْبه الصعقةَ الكهربيةَ، موجةً جديدة، وفكرًا جديدًا: الوجودية، جان پول سارتر، سيمون دو بوڤوار، فرانسواز ساغان.. الخ. وهو أمر لم يكن لنا أن نَلِجَ عالَمَه الواسعَ والحميم لولا سهيل إدريس.

(٢)

مَن ينظر إلى سهيل إدريس يلحظ إعصارًا إنسانيّاً هائلاً يتقمّص جسدَ آدميّ مفعمٍ بالتسامح والتعاطف. ومَن ينظر إليه يلمس فكرًا حيّاً متفتّحًا، وروحًا شابةً خالدة، وحاسّةً سابعةً تتصيّد الخيالَ المتأجّجَ والإبداعَ الحيّ. حقّاً، لا يمكن أيّاً كان أن يتجاهل توقّدَه، وحيويتَه، وضحكتَه الحميمةَ، عندما يرى مبدعًا يستحقّ أن تركّز عليه الأضواءُ. ولهذا لم أفاجأْ قطّ عندما كَشَفَ ابنُه سماح عن ذوبانه عندما يرى امرأةً جميلة: فالمرأة سرُّ الوجود وجمالُه، وجوهرُ الخلق وأسرارُه، ونعمةُ الحياة وعبثيتُها. المرأة لغزٌ سماويٌّ خُبِّئ لا في ضلع الرجل السابعة، بل في كلّ أضلاعه وجيناته. إنها ينبوعُ إحساس يفجِّر عند الرجل الحبَّ، والحبُّ يفجّر الحواسَّ، والحواسُّ تفجّر الإبداعَ والسموَّ والخلود. لم أدر عن تلك الحقيقة شيئًا سوى ما كشفه سَماح عن أسرار سهيل، فأضاف احترامًا على احترام، وتمجيدًا على مجد. ذلك أنه لا فرقَ بين تشعّبات المرأة والجمال والإبداع والحواسّ واكتشاف مواهب الغير!

> **أستطيع أن أقول إنّ أكبر جامعة أكاديمية في عموم الوطن العربي كانت، وببساطة، مجلة الآداب، لسهيل إدريس.**

أكانت حاسّةُ الشمّ القوية التي تمتّع بها سهيل إدريس هي التي مكّنته من أن يشمّ، عن بعد آلاف الأميال، عبيرَ زهورٍ متفتّحة، أريجَ ربيعٍ يزدهي في أوديةٍ سحيقةِ البعد، في فراغٍ يمتدّ من الموصل أقصى الشرق، حيثُ لا سورَ عروبةٍ بَعْدَها يحمي العربَ في خطوط الطول الشرقية، حتى موريطانيا، حيث لا عروبةَ بعدها في خطوط الطول الغربية التي تطلّ على المحيط؟! إنها مسافةٌ شاسعةٌ لا يُسبَرُ غورُها سوى في الكتب، والأطالس، وكتب التراث. أما في الواقع فعشراتُ الأقاليم متهرّئة، متسلّطة، متجزّئة؛ وثمة عشراتٌ من تأشيرات المرور، وعشراتٌ من العملات القوية والضعيفة، وعشراتٌ من الحقائق الزائفة! فمن استطاع تجاوزَ (وتصحيحَ) أخطاء أنظمة قومية وديكتاتورية مقنّعة، وديمقراطية عربية هشّةٍ مخادعة، وملَكياتٍ منخورةٍ مضبوعةٍ أمام عدوٍّ لا يَرحم، غير سهيل إدريس؟

في أول مسابقة للقصة القصيرة أقامتها الآداب في بداية الخمسينيات، فاز اثنان (سامي طه الحافظ وغانم الدبّاغ) من مدينة الموصل بجائزتين من ثلاث. تلك كانت إحدى أهمّ بصمات سهيل إدريس، وأحدَ أهمّ نشاطات ميدانه التي اخترعها، وكانت القصصُ الثلاث متألّقةً إلى حدّ لا يجارى.[1] أما فوز القصتين العراقيتين فحجرُ أساس ملهمٌ للناشئة من أمثالي، لا يستطيع أحدٌ إنكار دوره في ترسيخ كتابة القصة العراقية. أهي حاسة الشمّ نفسها التي اكتشفتْ موسى ولد إبنو في موريطانيا، ومحمد الزفزاف في المغرب، وأحلام مستغانمي في الجزائر، وإبراهيم أصلان في مصر، ويحيى يخلف في فلسطين، وهاني الراهب في سورية، ووو؟ أيستطيع أحدٌ إنكارَ مهارة الأصابع التي أزالت الصدأ عن جواهر لا تخضع للإحصاء والحساب كرواية نجيب محفوظ **أولاد حارتنا** التي نُشرتْ في الدوريات المصرية ولم يعطها أحدٌ حقَّها إلا حين أَمسكَ بها جوهريٌّ متمرّسٌ متواضعٌ طيّبٌ فأزال عنها الصدأ وجعلها تتألّق وتُعمي الأنظارَ بوهجها لكي توصل صاحبَها إلى جائزة نوبل؟!

هذا قليل من كثير. ولا بدّ لنا، كقرّاء علّمتنا الآدابُ القراءةَ، والتمييزَ، والنقدَ، وسعةَ الأفق، والأخلاقَ الحميدة، أن نَعْذر الروّادَ وأن نصحِّحَ شطحاتِ المؤرّخين.

شيكاغو

١ ـ أتمنى أن يعيد الدكتور سماح نشرَ القصص الثلاث، ليعطي نموذجًا يُحتذى أو يهدي، ويُغْني، ويوسّع أفقَ كتّاب القصة القصيرة العربية المعاصرة.